(٢)

المعجزة الدائمة

إذا كان الله سبحانه وتعالى قد أيد كل رسول بمعجزة لتكون بينة على صدق دعواه، وهذا من غير شك فضل من الله ورحمة كيف لا وهو الغنى عنا وعن إيماننا ولكنه كما يقول القرآن الكريم:

وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ (الإسراء ١٥)

وكانت هذه المعجزات دائما من نفس ما اشتهر به الناس فى ذلك الوقت، وهكذا كانت معجزة موسى عليه السلام الذى ألقى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون وعندما يضمم يده الى جناحه تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى. وكذلك كانت معجزة عيسى عليه السلام أن رد البصر للأعمى، وشفى الأكمة والأبرص. وأحيا الموتى بإذن الله.

أما معجزة محمد عليه الصلاة والسلام فكانت القرآن الكريم وما ذلك إلا لأن العرب فى ذلك الوقت كانوا من أرباب القلم وعمالقة البيان فيأتيهم القرآن الكريم ببلاغته وبيانه وهديه وإعجازه ليتحداهم جميعا أن يأتوا بمثله فيفشلون ويعجزون.

وإذا كانت كل معجزة تنتهى بانتهاء حياة الرسول الذى أنزلت من أجله، إلا أن

معجزة محمد عليه الصلاة والسلام قد أنزلت لتبقى وستبقى ما دامت السموات والأرض لأن الذى أرسلها تعالت قدرته وعظمت مشيئته أراد لها البقاء وقدر لها الدوام لتكون بينة وهداية لمن يريد أن يملأ قلبه بنور الإيمان وهكذا يقول القرآن الكريم:

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ (الحجر ٩)

ويقول جلت قدرته:

وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

(الأنعام ١٥٥)

وهكذا كان القرآن الكريم ويكون دائما معجزا لخلقه تبارك وتعالى من إنس وجان معجزا فى أسلوبه وبيانه، معجزا فى لغته وآدابه، عظيما فى سياسته وشريعته حكيما فى حكمه وهدايته، صادقا فى أخباره وقصصه، متحديا من يقول إنما يعلمه بشر فيقول وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ (البقرة ٢٣ـ٢٤)

وعندما يثبت عجزهم يقول القرآن الكريم فيهم:

قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ (الإسراء ٨٨)

وهكذا كان القرآن الكريم المعجزة الكبرى التى أنزلت لتكون نورا يهدى إلى نور الله الذى يضئ كل ما فى الوجود فهو سبحانه وتعالى نور السموات والأرض، يضئ لكل من يريد أن يعرف الله فيدله على نفسه فيعرفها حتى إذا عرف نفسه عرف ربه، وإذا عرف ربه خشع قلبه ولانت جوارحه ويسعد بقربه من الله، وهكذا عندما يريد الله

لعبد من عباده خيرا يهديه إلى ذلك النور المكتوب بحروف من نور، فيجد فيه ما يريد من شفاء للصدور، ويذهب عنه الحيرة التى يشعر بها كل من يعرف نفسه، ولم يعرف ربه وغمت عليه الرؤيا فابتعد عن طريق الهداية والنور.

وبالرغم من كل ذلك، ومن أن معجزة القرآن الكريم معجزة واضحة بينة إلا أن الكثير من العلماء فى عصرنا هذا عصر العلم والمعرفة يتحاملون على القرآن الكريم فيقولون أنه جامد وثابت فالقرآن الذى أنزل منذ أربعة عشر قرنا هو هو الذى نقرأه الآن فهو لم يتغير مع تغير الزمن، ولا يتمشى مع تقدم العلم، ولكن لو فكر هؤلاء قليلا ونظروا إلى الأمور نظرة عادلة خالية من الحقد والضغينة لا يشوبها تعصب أعمى ولا يفسدها غل فى الصدور ولا يشوبها غرور العلم لوجدوا أنه فى ثبات القرآن معجزة، وفى استقراره دليل على أنه ممن خلق الأرض والسموات العلى فهو يسير مع كل زمان رغم ثباته ويسير مع تقدم العلم جنبا إلى جنب.

فهو ثابت فى ألفاظه وآياته، جديد دائما فى معانيه، يوافق ما يصاحبها من تقدم فى العلم، ورقى فى المعرفة. فهو قد كان فى علمه سبحانه وتعالى قبل كل الأزمنة.

فهو يحتويها كلها فهو يجمع الماضى البعيد بالحاضر القريب، ويجمع الحاضر بالمستقبل، يفسره علم اليوم ويؤيده ما يكشف عنه التقدم العلمى فى الغد. وهكذا يفسره العلماء فى كل عصر من العصور فهو ثابت أبدا وإعجازه فى ثباته، أما العلم فبعيد عن الثبات فهو متغير دائما بتغير الزمن وتغير وسائل البحث. وهكذا يجد العلماء فى القرآن الكريم فى كل عصر من العصور ما يبحثون عنه، ويفكرون فيه ويفسرون فيجدون ما لم يجده من سبقهم ويستكشفون فيه ما لم يصل إليه من تولى قبلهم. فهو جديد دائما رغم قدمه عظيم دائما رغم ثباته معجز دائما لم يصل، ولن يصل العلم إلى كل ما فيه من معان وأسرار.

وتبدو عظمة القرآن وإعجازه فى المنهج الذى ينهجه فى الدعوة والهداية والطريقة

التى يسلكها فى تبشيره ووعيده فهو يتحدث إلى الإنسان أولا ليعرفه بمن خلقه، ومن أوجده ومن أى شئ خلقه لأن هذا الأمر هو أول ما يجيش فى صدر الإنسان منذ طفولته. بل هو فى الحقيقة أول ما شغل بال المفكرين والعلماء منذ القدم ولا يزال يشغل بالهم وتفكيرهم حتى وقتنا هذا، وهكذا كان أول ما نزل من آى الذكر الحكيم:

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ (العلق ١ ـ ٥)

وهكذا يقول سبحانه وتعالى لنبيه أن يقرأ باسم ربه الذى خلقه وخلق الإنسان من علق، وهكذا إذا اعترف الإنسان بأنه مخلوق إذاً لابد وأن يكون له خالق.

فإذا اطمأن الإنسان لخالقه وآمن بوجوده وقدرته يدعوه القرآن الكريم للعلم والتعلم وأنه سبحانه وتعالى خلقه وعلمه. وما لا يعلمه الإنسان كثير وكثير ولهذا كان لابد وأن يستمر فى طلب العلم والمداومة على البحث والدرس لأن طريق العلم هو الطريق السهل المفتوح على مصراعيه الذى يؤدى إلى الإيمان العميق. وهكذا كانت الحكمة فيما يدعو إليه القرآن الكريم فى أكثر من آية الى التفكير فى خلق الله والتفكير فى سمائه وكيف رفعها وفى الأرض وكيف بسطها، وفى الحب والنوى وهو فالقه ومنبته. وفى الحيوانات والدواب وقد جعل عليه رزقها وهيأ لها مستودعها ومستقرها. بل هناك ما هو أكثر من ذلك وأعظم عندما يقسم سبحانه وتعالى بالقلم وما يكتبون:

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ (القلم ١ ـ ٤)

وهكذا يدعو القرآن الكريم فى كثير من آياته إلى التفكير والتدبر وإلى النظرة الفاحصة لكل ما فى الوجود من موجود حتى يعرف الإنسان أن كل ما يراه وما يلمسه فى هذا الوجود لابد وأن يكون له موجد ولابد وأن يكون أكبر وأعظم من كل الوجود

وما فى الوجود. وعندما يسأل الناس محمدا عليه الصلاة والسلام قائلين إنك تقول أن الله قد خلق الخلق فمن الذى خلق الله وينزل الوحى على الرسول ليقول:

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ (الإخلاص ١ـ٤)

وهكذا ترتفع هذه الآيات البينات بجلاله سبحانه وتعالى فوق كل الشبهات فهو واحد أحد، واحد صمد، وهو لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد. وهكذا لابد وأن يكون الله واحدا لا إله غيره.

قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ (الإسراء ٤٢ـ٤٣)

وهكذا ينفرد الله بوحدانية لا يشاركه فيها مشارك، وأنه هو خالق هذا الكون وباعث الحياة ويقول القرآن الكريم:

هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ (الحديد ٣)

ثم استمعوا لقوله سبحانه وتعالى وهو يسأل ويجيب ليؤمن من أراد الله أن يشرح صدره للإيمان فيرى الإعجاز والمنطق الواضح المقنع السليم فلا لبس ولا غموض

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ (يونس ٣٤ ـ ٣٥)

حتى إذا استقرت النفوس وهدأت الخواطر وعرف الإنسان طريقه ازدادت معرفته بالله وعرف ما فى قوله سبحانه وتعالى من إعجاز:

لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ

(البقرة ٢٥٥)

يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ (غافر ١٩)

وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ (الأعراف ٨٩)

وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ (الأنعام ١٠١)

وغير ذلك من الآيات الكثيرة التى تبين عظمة الله وسعة علمه وأحاطته بما نخفى وما نعلن. ثم استمعوا لقوله سبحانه وتعالى وتقريعه لمن يدعى بأن هناك خالقا غير الله فيقول انهم ليسوا عاجزين فقط على أن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له بل هم غير قادرين إذا سلبهم الذباب شيئا أن يستردوه

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾

(الحج ٧٣)

وتتمثل عظمة الله سبحانه وتعالى فى ثوابه وعقابه فقد أعد سبحانه للمحسنين والمحسنات جنات تجرى من تحتها الأنهار. وأعد للمسيئين والمسيئات نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ويقول سبحانه وتعالى:

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ (الرحمن ٤٦)

ويقول أيضا :

وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ * (فصلت ٤٦)

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ

ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾
(البروج ١١ ـ ١٤).

وهكذا تدرك العباد رحمة الله فيتبع ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ بقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾.

ثم استمعوا لوعيده سبحانه وتعالى الذى تقشعر منه جلود الأبدان:

إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾
(الكهف ٢٩)

ثم فلنستمع لرحمته سبحانه وتعالى بعد هذا الوعيد إذ يقول:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾
(الكهف ٣١)

ويقول سبحانه وتعالى فى آية أخرى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾
(النساء ٥٦ـ٥٧)

وهكذا يشتد القرآن الكريم فى وعيده ثم يزيد بسطا لرحته تعالى حتى تطمئن نفوس العبيد وهكذا يحدثنا سبحانه وتعالى:

مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ

ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

(الزمر ٢٣)

فما أبدع هذا التصوير لتأثير القرآن فى النفوس، وما وراء ذلك التأثير من خوف تقشعر منه الجلود، ثم تلين ثم تهتدى إلى طريق الصواب طريق الحق والنور.

ولا تقف رحمة الله عند هذا فحسب وحاشا أن تكون لرحمته حدا أو حدود استمعوا معى إلى قوله سبحانه وتعالى:

قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ

(الزمر ٥٣)

ويقول سبحانه وتعالى:

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

(البقرة ١٨٦)

وهكذا يكون حديث الإله القادر فهو قريب من عباده يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ويغفر الذنوب جميعا والآيات الدالة على رحمته كثيرة تتناسب مع عظمته وقدرته. ألا يقرأ القرآن من يريد أن يعرف حقيقة ما فى هذا القرآن من إعجاز عندئذ يدرك تمام الإدراك أنه من عند الله الرحمن الرحيم، فهو يدعو إلى الخير والإيمان بأسلوب يصل إلى أعماق القلوب.

ودعوة القرآن إلى الهداية والخير لا تتم بصورة أوامر عنيفة صارمة رغم أنه قادر على كل شئ بل هو يدعو بالكلمة الطيبة والكلمة الطينة تفعل فى النفس الطيبة أكثر مما تعمل الكلمة القاسية الجامدة. استمعوا لقوله سبحانه وهو يتحدث إلى موسى وهارون فيقول لهما: ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ

أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ (طه ٤٣ ـ ٤٤)

وعندما يقول:

رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ (طه ٤٥)

يقول لهما سبحانه وتعالى:

قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾
(طه ٤٣ ـ ٤٧)

ويتحدث القرآن الكريم عن الكلمة الطيبة فيقول أنها كالشجرة الطيبة:

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾
(سورة إبراهيم ٢٤ ـ ٢٥)

أما عن الكلمة الخبيثة فيقول سبحانه وتعالى:

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾
(إبراهيم ٢٦)

وهكذا كانت دعوة الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويقول سبحانه وتعالى:

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾
(آل عمران ١٥٩)

لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

(البقرة ٢٥٦)

أما عن بلاغة القرآن وسحره وتأثيره فى النفوس فاستمعوا لعمر بن الخطاب عندما بحث عن ندمائه وأصدقائه فلم يجدهم ويبحث عن ساقيه فيقول له أحدهم:

إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ

(المائدة ٩٠)

فيغضب عمر ويقول أن هذا كلام محمد ويقسم أن ليقتلن محمدا بسيفه ولكنهم يخبروه بأن أخته فاطمة، وزوجها سعيد بن زيد قد أسلما وتابعا محمدا على دينه فيذهب عمر إليهما غاضبا فيستمع إلى خباب وهو يقرأ عليهما القرآن:

طٰهٰ ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾

يصل إلى قوله سبحانه وتعالى:

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ (طه ٢ ـ ٨)

عندئذ يشعرون بمقدم عمر فيرتكبون ويخفون الصحيفة التى كانوا منها يقرأون ولكن عمر يبطش بسعيد فتقوم فاطمة لتمنع أخيها عن زوجها فيصيبها ما أصابه. عندئذ يتحداه الإثنان فى شجاعة قائلين له أنهما أسلما وآمنا بمحمد عليه الصلاة والسلام إلا فليصنع بهما ما يريد. ولكن ما سمعه عمر من سورة طه لا يزال يدوى فى أذنيه فيشغل باله وتفكيره. وهو من غير شك قد تأثر بما سمع ولكنه يكابر ويغالط ويطلب منهما إن يرياه الصحيفة التى كانا منها يقرئان فيأخذها منهما ويقرأ:

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ

لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا (طه ٨ـ ١٠)

إلى أن يصل إلى قوله سبحانه وتعالى:

فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ (طه ٢٦)

عندئذ تخشع نفس عمر وينشرح صدره ويذهب إلى رسول الله صلوات الله عليه ليقول يا رسول الله جئتك مؤمنا بالله ورسوله وبما جئت به من عند الله.

وعندئذ يذهب عتبة إلى النبى عليه الصلاة والسلام ليعرض عليه المال والشرف والملك والسلطان فيطلب منه صلوات الله عليه أن يستمع إلى ما يتلو من قرآن كريم فيقول:

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ (فصلت ١ ـ ٧)

وينصت عتبة ويستمع وهو مأخوذ بما سمع ويستمر رسول الله فى تلاوته للقرآن ويقول: (يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك) ويذهب عتبة إلى قومه بوجه غير ذلك الوجه الذى غادرهم به. ويسأل أبو جهل ما ورائك يا أبا الوليد فيقول عتبة أنى سمعت قولا ما سمعت مثله قط واللات ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش أطيعونى وأجعلوها بى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه. ويقول أبو جهل معقبا «سحرك واللات يا أبو الوليد» ولكن عتبة يستمر ويقول لقد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة

بعد. لقد كان محمد فيكم أمر غلاما حدثا أكرمكم خلقا وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم كاذب وساحر ومجنون.

ثم استمعوا إلى قريش وهى تسأل النبى عليه الصلاة والسلام عن الروح ما هى فيجيبهم صلوات الله عليه أنه سيخبرهم بما سألوا عنه غدا. ولكن الوحى ينقطع عن رسول الله خمس عشرة يوما حتى يتجه رسول الله إلى ربه ويقول: (أى رب اليك أشكو بلائى. أى رب أبعث إلى وحيك أبعث إلى وحيك. لقد سألونى عن الروح ولا أعلم بما أجيب. أى رب انسيتنى اللهم إنى لفى بلاء اللهم إنى لفى بلاء) فيستجيب سبحانه وتعالى ويأتيه جبريل عليه السلام فيقول له رسول الله عليه الصلاة والسلام (لقد اخبست عنى يا جبريل حتى سؤت ظنا) فيوحى إليه جبريل عليه السلام:

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾

(مريم ٦٤)

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

(الكهف ٢٣ـ٢٤)

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

(الإسراء ٨٥)

ولكن قريشا لا تجد فى هذا الرد ما يشفى صدورهم ويقول عتبة والله ما هو بعاجز. وما كذبكم فى هذا شيئا. إن الروح لا يمكن أن تكون من أمر بشر. وما كان عليه لو أنه نبى كاذب أن يقول قولا أو يصف لكم وصفا يرضيكم ويسكتكم به.

وفى هذا الرد ما يكفى ويزيد فمحال أن تكون الروح إلا من أمر الله. وغياب الوحى هذه المدة الطويلة دليل على أن الوحى من غير ذات النبى إذ لو كان من ذاته لأخبرهم برأيه هو فى اليوم التالى كما قال عليه الصلاة والسلام ووعد. ولكنه لم يستطع أن يفى بما وعد لأن الوحى من عند الله وهكذا يحدثه الوحى:

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

(الكهف ٢٣ـ٢٤)

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾

(سورة النساء)

obeikandl.com